رؤية نفسية للتعذيب الفرنسي في الجزائر

أة. بلال ريم؛ أة. سوالمية نورية
جامعة معسكر

مقدمة:

مسألة التعذيب ليست وليدة المجتمعات الحالية، بل هي قديمة لازمت التاريخ البشري على مر العصور وعانت منه جميع الشعوب، إلا أن أساليب التعذيب الرهيبة سواء الجسدية أو النفسية لم تصل في وحشيتها إلى الدرجة التي بلغتها في القرن العشرين، والسنوات الأولى من العقد الحادي والعشرين؛ حيث أصبح تعذيب الإنسان وسيلة لتدمير شخصية وكرامة الضحية، مع تعمد إصابتها بخلل وعاهات جسدية ونفسية مزمنة، ترافقها إلى آخر عمرها.

فبالرغم من أن الثورة الفرنسية قد وضعت حدا للتعذيب رسميا توج بإصدار أول" إعلان لحقوق الإنسان "عام 1789، والذي أصبح التعذيب بمقتضاه تعديا على حقوق الإنسان، والممارس له مجرما تنّفذ فيه عقوبة الإعدام بالمقصلة. إلا أن ممارسة التعذيب في حق البشر لم تنته، وبرز التعذيب وتطور خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وفي الجزائر المستعمرة خاصة في عهد الجنرال ديغول، حيث استعمل التعذيب كوسيلة لقمع الجزائريين، وكأسلوب ضغط للحصول على المعلومات من أجل القضاء على الثورة، واعتبر التعذيب أسلوبا مشروعا في الحرب، حيث صرح الجنرال ديغول بذلك: "التعذيب جزء من النظام القائم" (قليل، ع. 1991: 45)، والنظام القائم هو النظام الاستعماري.

كتب هنري ألنغ كتابا استنكر فيه أعمال التعذيب التي مورست على الجزائريين أسماه "السؤال" (La Question) صدر عام 1958 بباريس، صوَر أشكال التعذيب في سجن جزائري كان معتقلا فيه حيث قال: "التعذيب؟ لقد ألفنا هذه الكلمة منذ زمن طويل وقليلون جدا هم أولئك الذين أفلتوا منه ... طوال شهر سمعت صراخ رجال كانوا يعذبون وستظل صيحاتهم تتردد في ذاكرتي إلى الأبد، وقد رأيت معتقلين يضربون بالمطارق ثم يلقى بهم من طابق إلى آخر، فيصيبهم من التعذيب والضرب و الخبل..." (اليغ، هـ. 1958: 8- 9). ووصف جون بول سارتر تلك الأعمال والأساليب في كتابه "عارنا في الجزائر" واعتبر "الاستجواب ليس لا إنسانيا فقط، بل هو جريمة دنيئة وحمقاء يرتكبها بشر ضد بشر آخرين ..." (سارتر، ج، ب. 1958: 52).

إن تناولنا مسألة التعذيب يطرح أمامنا مستوى التوحش الذي بلغته فرنسا في الجزائر المستعمرة. ومن أجل تقريب الظاهرة موضوعيا حاولنا طرح التساؤلات التالية:

ـ ما هي الأساليب المستعملة في استنطاق الضحايا؟، بماذا تتميز شخصية الجلاد؟ وإلى أي حد يمكن للضحية تحمل بطش وعذاب وإهانة الجلاد؟ وحتى إذا بقي متمسكا بقيمه لإيمانه القوي بالقضية الوطنية وبالثورة، هل ينتهي عذابه وألمه بانتهاء عمليات التعذيب وخروجه من المعتقل أو مركز التعذيب، وهل تنتهي مآسيه باستقلال الجزائر؟ أو أن للتعذيب مخلفات وآثار طويلة الأمد؟

تلك هي أهم التساؤلات التي سنحاول الإجابة عليها في هذه الورقة.

أولا: مفهوم التعذيب

يعرف التعذيب على أنه "إلحاق الأذى الجسدي والنفسي، المتعمد أو المنظم أو الجائر، من قبل شخص أو أكثر يعمل لوحده أو بناء على أوامر أي سلطة كانت، بهدف إجبار شخص آخر على تقديم معلومات، أو على الاعتراف، أو لأي سبب آخر ويقيسها مقياس شدة التعذيب النفسي والجسمي"(Nation Unies , 2005: 55).

وعرف Jaque Vialatoux سياسة التعذيب على أنها "ممارسة وسلوك فعلي يمارس على الفرد، يقوم به جهاز من أجل الاستنطاق أو بدافع العقاب أو الانتقام، حيث تترتب عليه أضرار جسدية ومعنوية تحط من الكرامة الإنسانية" (Vialatoux ,J. 1957 :42-43).

كما عرفت الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1984/12/10 في المادة (1) التعذيب على أنه:"عمل ينتج عنه ألم أو عذاب شديد، جسدياً كان أم عقلياً، يلحق عمداً بشخص ما بقصد الحصول من هذا الشخص أو من شخص ثالث على معلومات أو على اعتراف، أو معاقبته على عمل ارتكبه، أو يشتبه في أنه ارتكبه هو أو شخص ثالث، أو تخويفه أو إرغامه هو أو أي شخص ثالث، أو عندما يلحق مثل هذا العذاب أو الألم لأي سبب من الأسباب، يقوم على التمييز أياً كان نوعه، أو يحرض عليه أو يوافق عليه أو يسكت عنه موظف رسمي أو أي شخص آخر يتصرف بصفته الرسمية " (سلطان،أ. 2000: 10).

إذن يمكن تعريف التعذيب كمفهوم أساسي في دراستنا هذه على أنه تسبب مقصود لمعاناة جسدية ونفسية، إنه تعد على إنسانية الإنسان، بل هو تجريده من إنسانيته، وعدم الاعتراف بقيمته وكيانه.

ثانيا: أساليب التعذيب ووسائله:

لقد وصلت بشاعة أعمال التعذيب حدا لا يصدق، حيث لم يفرق المستعمر بين رجل وامرأة. يقول علي كافي قائد الولاية الثانية: "...لا يصدق العقل أنه في القرن العشرين يوجد إنسان يتوجه إلى أخيه الإنسان فيوثق يديه ورجليه ويسمرهما بالمسامير في ألواح.." (كافي، ع. 1958/05/01). يمكن تقسيم التعذيب بصفة عامة إلى تعذيب جسدي وآخر نفسي.

1- التعذيب الجسدي

يستعمل لكسر مقاومة الضحية إذ يمارس على جسمه عنفا وضربا قاسيين، ومحاولة البلوغ بالآلام التي يعانيها الضحية إلى أقصى درجات الاحتمال. وتستهدف هذه الممارسة مناطق حساسة في الجسم، وتتنوع بتنوع الأساليب المستخدمة في ذلك و نذكر منها:

1 -1 - التعذيب بالكهرباء

التعذيب بالكهرباء من أبشع الجرائم التي قامت بها فرنسا تحت عنوان الحضارة، يعد الطريقة الأكثر شيوعا، ويحوي عدة طرق "منها أن يمدد المعذب على طاولة، وتقيد رجلاه ويداه على أن يكون عاري الجسد ثم يفرغ على جسمه وعاء من الماء لتعميم التيار الكهربائي عند إرساله، مع تسليط التيار على الأعضاء الحساسة في الجسم، أو أن يقيد الشخص عاريا ويربط بالجدران ورجلاه واقعتان في صحن مملوء بالماء، أو أن يكون الجسم مربوطا إلى سلم مغمور في صحن من الماء ويوضع الخيط الكهربائي على مختلف الأعضاء" (لونيسي، ا. 2002)، ويمكن تصنيف هذه الطرق إلى:

- غرس الأسلاك في الجلد : "تغرس الأسلاك الكهربائية في الأماكن الأكثر حساسية من الجسم وهي اللسان، الأذن، الأعضاء التناسلية أو الثديين، ولزيادة مفعول التيار الكهربائي تبلل الضحية أو توضع الأرجل في إناء به ماء وتربط الأيدي مع القضبان الحديدية، وكانت هذه العملية تطبق على البنات في فيلا سوزيني في أعالي جبال العاصمة" (نجادي، ب. 2007: 145)

- الحمام الكهربائي: يقوم الجلاد برمي الضحية عارية في حوض من الماء وأغلب هذه الأحواض كانت توجد في معصرات الخمور، حيث صرح المجاهد بوعبيدة خالد (أمين المجاهدين لبلدية البرج ولاية معسكر) أن المستعمر قام بوضع مجموعة من المجاهدين في حوض مملوء بالماء داخل معصرة وسط بلدية البرج التي كانت مركزا للتعذيب عام 1957 (حاليا مدرسة مولود فرعون)، ثم يقوم برمي الأسلاك الكهربائية في الحوض وتكرر العملية حتى الموت.

- الجيجان: هي آلة لتوليد الكهرباء بها أقطاب كهربائية تسمح بمرور التيار(بختاوي، خ. 2009)، توجد خاصة بالثكنات العسكرية، وهي مفخرة الجيش الفرنسي كونها تعبر عن الحضارة والتطور وسميت بالذئب، توضع الأسلاك الكهربائية في الأذن وفي المناطق الأكثر حساسية بعد تعرية الضحية ووضعها على الطاولة وربطها "(BOUSSALHAM, H, 2001 :181).

1- 2- التعذيب بالماء

بالرغم من أن الماء مصدر للحياة، إلا أنه استخدم في عملية التعذيب "حيث أرغم العديد من المعتقلين على ابتلاع كميات كبيرة من

الماء تفوق طاقة استيعاب الفرد، بوضع أنبوب أو مخروط في فمه، ويسكب الماء بعد أن يغلق أنف الضحية مما تجبره على الشرب إلى أن يمتلأ البطن .(Kera Kermane, H. 1960 : 15)

أو يدخل رأس الضحية في صهريج من الماء حتى يكاد يختنق ثم ينزع الرأس وتكرر العملية مرات كثيرة، ويمكن تصنيف التعذيب بالماء إلى صنفين أساسيين هما:

- الحقن أو إدخال الماء: يتم إدخال الماء والصابون في بطن المعذب بعد غلق الأنف أو بأنبوب عبر الأنف حتى ينتفخ البطن بما هو أكثر من الكفاية، يقفز الجلاد برجليه على بطن الضحية حتى يخرج الماء من الفم أو من السرم"(نجادي، ب، 2007: 147)

- حوض الماء: تعرى الضحية في الليل عندما يكون البرد قارصا، ويغطس رأسه في حوض الماء حتى الاختناق...، أو توضع الضحية في كيس ثم تغطس في حوض الحمام إلى غاية الاختناق"(نجادي، ب، 2007: 147)

1- 3- التعذيب بالنار

يمكن أن نميز نوعين من التعذيب بالنار وهما حرق جزئي وآخر كلي.

- الحرق الجزئي: يتمثل في حرق جزء من الجسم باستعمال "السجائر وإطفائها على جسم الضحية، أو إشعال أعواد الثقاب ووضعها بين أصابع يده أو رجليه بعد ربطها ليتم حرق أظافره، أو إشعال الشمعة تحت الأرجل والسيقان حتى تنطفئ، أو تقطير البنزين على الصدر وإشعال النار فيه، والآلام الناتجة عن ذلك لا يمكن وصفها" (نجادي، ب، 2007: 148- 149)

- الحرق الكلي: هو تعذيب وإعدام للشخص يتم علنا بعد تجميع السكان المحليين، وهو جزء من الحرب النفسية التي أعلنها المستعمر؛ حيث يقوم الجلاد بتبليل الضحايا كليا بالبنزين بعد ربطهم، ثم إشعال النار وتركهم يحترقون حتى الموت أمام أهلهم. ومن شهداء منطقة البرج الذين تم حرقهم الشهيد داود محمد، فارس بوعلام، والشهيد غربي محمد سنة 1957. (تصريح أمين المجاهدين لبلدية البرج ولاية معسكر 2011).

1- 4- التعذيب بالحبل

تعددت وتنوعت كيفية استعمال الحبل على الضحايا ونذكر منها:

- التعليق: حيث "يتم تعليق الضحية لأيام بربط رجليه وشدها على جذع شجرة والرأس إلى الأسفل بعد ربط يديه إلى الخلف، ويترك على هذه الحالة لأيام تحت الشمس عاريا دون أكل أو شرب"(BOUSSALHAM, H, 2001 :181).

- الكيس:" تجمع رجلا الضحية ويداها وتربط بحبل واحد وتعلق الضحية، حيث يكون الرأس والظهر موجهان نحو الأرض، ثم يطلق فجأة ويسقط مثل الكيس ليسحق" (نجادي، ب.2007: 150)

- الربط على الأرض:" يوضع الضحية في شكل صليب على الأرض في مغارات وتربط الأرجل والأيدي في أوتاد مغروسة في الأرض، ويبقى المعذب السجين في هذه الوضعية أيام عديدة في الظلام الدامس والعزلة المطلقة.أغلب من تعرض لهذا العذاب صار مختلا عقليا" (نجادي، ب، 2007: 151)

ـ الخنق: يربط المعذب على كرسي في وضعية جلوس، ويعقد حول رقبته حبل ويجذب جلادان طرفي الحبل ويضيقان على الرقبة إلى حد الاختناق التدريجي الذي يصل إلى حد الموت" (نجادي، ب، 2007: 150).

1- 5- التعذيب بالدفن

يتم حفر حفرة تسع الضحية كليا، يدخل داخلها ويتم تغطية جسمه باستثناء الرأس ويبقى على هذه الحالة أياما عديدة تحت الشمس الحارقة أو الأمطار الغزيرة. أو يتم حفر آبار واسعة وعميقة ويرمى فيها الضحايا لأجل غير معروف. وقد أكتشف العديد من هذه المقابر بعد الاستقلال، منها " اكتشاف مدفن يحتوي على 316 جثة لرجال ونساء وأطفال، كانت الهياكل العظمية مربوطة بأسلاك حديدية وعظام أخرى مكسورة كانت تحمل علامات التعذيب..." (نجادي، ب، 2007: 12).

1- 6- التعذيب بالاغتصاب

يعد التعذيب بالاغتصاب نشاط جنسي يهدف إلى تحطيم هوية الضحية، ويتمثل في إجباره للاشتراك في علاقات جنسية مهينة تسبب ألما جسديا للعضو التناسلي.

قد يكون الاغتصاب بالأنابيب أو العصي، إن مستوى عال من الوحشية، إذ لا يمكن تصور"وحشية اغتصاب امرأة بواسطة فرشاة أسنان وقنينة زجاجية في آن واحد" (دوبوفراج، س. 1957: 41). ويهدف التعذيب بالاغتصاب إلى تحطيم صورة الذات، فالجلاد هو المتحكم في الضحية فلا تبقى أي حرمة للجسد خارج سيطرة الجلاد وأي خصوصية للضحية خارج سطوته.

1- 7- التعذيب بوسائل أخرى

- **الضرب الجماعي:** الضرب الجماعي هو ضرب عشوائي، حيث يوضع السجين في الوسط ويلتف حوله مجموعة من الجلادين الذين يبدؤون بضربه بالأرجل أو باللكمات محاولين استنطاقه، أو تعليق الضحية من الأيدي أو من الأقدام مع الضرب المبرح من طرف الجلادين.

- **استخدام الحيوانات:** تستخدم الحيوانات أيضا من أجل استنطاق الضحية، "فيتم إطلاق الكلاب من فصيلة ألمانية مدربة، يأمرها صاحبها بالهجوم على الضحية التي تكون منهكة القوى وعارية، تبقى تصارع ذلك الحيوان الذي ينهش لحمها في أماكن مختلفة ووسط ضحكات سخرية الجلادين..." (بختاوي، خ. 2009).

فمن خلال ممارسة كل أساليب التعذيب الجسدي المذكورة آنفا يحاول الجلاد الوصول إلى نواة الضحية النفسية إلى قناعاتها ومحاولة زعزعتها، فالتعذيب الجسدي هو في الأساس نيل من الذات وصورتها، هو اعتداء على الهوية الذاتية...

الاعتداء على الجسد وإنزال العذاب والهوان به ليست مجرد مسألة ألم يحتمل أو لا يحتمل، بل هو إيذاء الاعتبار الذاتي" (حجازي، م. 2006: 133- 134)، وقد صرح العقيد "لاشروا" متخصص في الحرب النفسية "لا فائدة من قتل الأجساد، فلابد من تحطيم النفوس للمحافظة على الغرب" (نجادي، ب. 2007: 13)

2- **التعذيب النفسي**

يعد التعذيب الجسدي تعذيبا نفسيا غير مباشر، وهذا عندما يتحول جسد الضحية من ملكيته إلى ملكية الجلاد يفعل به ما يشاء، وعندما يحكِم الجلاد سيطرته على جسد الضحية بواسطة اهانة مهام

جسده الأساسية، ويتحكم في حاجات جسمه وخصوصياتها، من خلال العزلة لفترة طويلة، والاهانات، والتعرية من الملابس، والتهديد، من أجل زرع الرعب والشعور بالهوان، فمن بين الأساليب النفسية المباشرة نذكرما يلي:

2- 1- التعذيب من خلال التحكم بحاجات الجسم

يعتبر الاغتسال من بين الحاجات الأساسية للجسم، فمنع النظافة لأسابيع، ومنع الضحية من الذهاب إلى دورة المياه وإرغامه على ممارسة حاجاته في ملابسه...، كلها ممارسات تهدف إلى النيل من كرامته واحترامه للذات. وبهذا يصبح للجسد دلالة قيمية مضادة باعتبار النظافة شرطا للإيمان، وبالتالي يحاول الجلاد أن يفقد الضحية الإيمان بعقيدته وبالقضية التي يؤمن بها.

التجويع ومنع الطعام يعتبر أيضا تعذيبا نفسيا، إذ لا يؤثر على الجسد فحسب بل يؤثر على نشاط الدماغ والجهاز العصبي أيضا، وبالتالي قد تؤدي هذه الوسيلة إلى تشويش ذهني وفقدان السيطرة الفعلية على السلوك.

من بين حاجات الجسم أيضا التواصل والحركة، فعزل السجين وحبسه منفردا في زنزانة مظلمة وما يصاحبه من عزل عن العالم الخارجي وعدم معرفة أخبار الأهل والرفاق يعد أيضا تعذيبا، حيث تتغلغل الهواجس داخل نفس الضحية.

عمليات التعذيب والاستجواب يصاحبها أسلوب تعامل يومي مع المساجين، والذي يعد تعذيبا نفسيا صارخا، والمتمثل في الشتائم

والسباب، سب الأم والزوجة خاصة لما لهما من حرمة في مجتمعاتنا وثقافتنا، وكذلك الضحك والسخرية.

2- 2- **تعرية الضحية**

يقصد بها تجريد الضحية من الثياب من أجل الإذلال، فكما صرح عمراني عبد الحميد "المهم أن يشعر الضحية بأنه ليس من جنس الجلاد، ولذلك يعرونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهزؤون منه، ويمر الجنود بالقرب منه ذهابا وإيابا ويقذفونه بشتائم وتهديدات" (عمراني،ع- م، ب س: 100).

2- 3- **التهديد المستمر**

إن استخدام الأطفال والنساء وأفراد العائلة كشخص ثالث في عملية الإرهاب والتعذيب يخضع لمنطق استغلال العلاقات العاطفية داخل العائلة لوضع الضحية في فخ الاختيارات المستحيلة.

2- 4- **أسلوب غسل الدماغ**

يهدف أسلوب غسل الدماغ إلى التحكم بالضحية كليا وفرض قناعات جديدة عليه مع تغيير المواقف والاتجاهات التي يحملها، حيث استعمل منع النوم لمدة طويلة في غسل الدماغ، والذي يؤدي إلى اضطرابات في الإدراك والهلاوس والهذيان، والتقليل من نشاط جهاز المناعة، والإجهاد الجسدي والنفسي، زد على ذلك مختلف العقاقير التي تفقد الفرد القدرة على التحكم في قناعاته...وعليه تعتبر عملية غسل الدماغ عملية تقوم على مبادئ التحكم في السلوك وتغييره.

ثالثا: شخصية الجلاد

نتسائل من خلال هذا العنصر عن شخصية الجلاد ومميزاتها، وما هي الأسباب التي تجعله يتفنن ويتلذذ بتدمير الضحية، يمكن تصنيف الوضعيات التي تساهم في تكوين شخصيات الجلادين إلى وضعيتين وهما: 1. الجلاد الضحية، و2. صناعة الجلاد.

1- **الجلاد الضحية**

تعرض الفرنسيون في الأربعينات إلى أسوء المعاملات على يد الألمان، وفي الهند الصينية شاهدوا العديد من أهاليهم يتعرضون للتعذيب. ومن بين قادة الجيش الفرنسي الذين تعرضوا إلى هذا التعذيب "بيجار" (BIGEARD) الذي سجن وعذب على يد الألمان سنة 1940، وسجن وعذب في الهند الصينية سنة 1954، بالإضافة إلى "لاكوست (Lacoste) الذي أسر أبوه ورمي بالرصاص من قبل النازية، هؤلاء الجلادون هم ضحايا في الواقع، وإن مقولة "الضحية يصبح جلادا" هي في الواقع ظاهرة نفسية تعتبر كرد فعل على سوء المعاملة، تحدث هذه الظاهرة عندما لا يستطيع الأفراد التكيف مع كونهم ضحايا، وبالتالي يبحثون عن ضحايا آخرين، فتتشبه الضحية بالمعذب وتسلك سلوكه"(سلطان، أ، 2000: 44).فهي تعتبر وسيلة للتكيف يلجأ إليها الأشخاص الذين يفتقدون إلى الآليات المناسبة للتعامل مع آلامهم وأوجاعهم التي لا يتم علاجها.

الحقيقة أن الجلادين المظليين يصفون أنفسهم بالأكابر والعظماء والأقوياء، وأيضا يشبهون أنفسهم "بقسطابو" الخمسينيات لأنهم يريدون إقناع أنفسهم أولا ثم الضحية ثانيا بذلك، فمن المثير للاهتمام هو ترديد الجلاد أنه من" القسطابو" وأنهم من منطقة الألزاس قصد تقربهم من

الألمان، وبتثبيت وزرع فكرة القاسطبو في ذهنية ضحيتهم" (عمراني،ع ـ م، ب س:102).

وقد وُصف "الجلاد الفرنسي" بالسادي" من طرف العديد من الباحثين أمثال سارتر وهي "صفة تعبر عن أفعال إجرامية وجنسية مرعبة، وعقاب جسدي سواء لأشخاص أو حيوانات، وهي رغبة في إذلال الغير والجرح والضرب والقضاء على الآخر من أجل تلبية رغبات جنسية" (PROULX,J,2005 :163). فالسادية تعني اضطراب شديد في الشخصية يجعلها تسعى نحو إذلال الآخرين والتنكيل بهم، مع الاستمتاع برؤية الآخرين وهم يتألمون، والتعذيب هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن حصول هذه الشخصية المرضية على نشوة نفسية وجنسية. فالجلاد الفرنسي لم يمتنع أبدا من إذلال وتحطيم الضحايا، حيث نجد في الكثير من المراجع صورا جانحة تميز الفعل السادي لهذا الجلاد، ومن أهم أفعال السادية تشويه الضحية وتعذيبها أسوء العذاب لفترة طويلة حتى الموت، والاحتفاظ بصور الضحايا... وأهم ميزة هي قطع الرأس وتعليقه" (LACASSAGNE,A,2003,239). كان الجنود الفرنسيين يفتخرون بضحاياهم وبعددهم، وأخذ صور لهم، فترى في وجوههم متعة لا توصف، صرح أحد الجنود الفرنسيين في اعتراف له ان أفراد " الجيش الفرنسي كانوا يتمتعون بمشاهدة الجلادين وهم يعذبون السجناء وكأنه أمام مباراة أو فيلم شيق..." (عمراني، ع- م، ب- س، 107)

فالتعذيب أساسا يتغذى من آليتين متكاملتين على المستوى الذاتي، وهما:

"الظفر في معركة إخضاع الضحية وكسر مقاومتها، وإطلاق العنان للسادية الذاتية، وكلاهما يفسران ذلك الانغماس في التفنن في التعذيب والتلذذ اتجاه آلام الضحية " (حجازي، م. 2006: 153- 154)؛ وعليه يهدف التعذيب أولا إلى كسر إرادة الضحية ومقاومتها ودفعها إلى الاعتراف، وهو في نظر الجلاد مجالا لإثبات قوته وقدرته وسطوته، يحاول إثبات وجوده في معركة بينه وبين الضحية. لذلك يهدف هذا الجلاد إلى أن تعيش الضحية في حالة إحساس بأن لا خلاص لها من العذاب الذي يفرضه عليها إلا بالاستسلام، ولا خيار آخر سوى الرضوخ لرغبات الجلاد.

وثانيا يكمن جوهر سادية الجلاد في البحث اليائس عن الأنا والحاجة إلى تأكيد الذات من خلال دفع الضحايا للاستجابة لحقيقته الذاتية ...فبالألم يفرض الجلاد على الضحية الاعتراف بوجوده وحضوره.

2. صناعة الجلاد

مجرموا الحرب هم في واقع الأمر أطباء، سائقون، رجال أعمال، رجال دين، سياسيون، جنود، آباء وغيرهم، لكن في مرحلة معينة من حياتهم تحولوا إلى حراس لمحتشدات ووسطاء لعمليات الاعتقال، قادة عسكريون وقتلة، وعلى هذا الأساس صرحت الباحثة النفسانية "سيروني" في دراستها عن " الجلاد والضحية " (1999)، بأن الفرد لا يكون جلاد ومن ثمة "علينا التفكير في صناعة الجلاد" وتضيف "نحن لا نولد جلادين بل نصبح كذلك" (SIRONI,F, 1999 : 128-129) سواء بفضل تجربة اجتماعية عنيفة،-أو نتيجة تربية خاصة كما أكدته الباحثة ميلر(Miller,A) حيث تشير إلى وجود "تربية سوداء هي مصدر صناعة

الجلاد، ولذلك يتميز هذا الأخير بازدواج في الشخصية يبرر عمله المزدوج" (SIRONI,F, 1999 : 129)، يقول الجنرال أوساريس في مقدمة كتابه أن "العمل الذي قمت به في الجزائر كان من أجل بلادي، معتقدا في ذلك أنني أحسن صنعا، وإن كنت لم أرد أن أقوم به، فما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا لا يمكن لنا أن نندم عليه" (أوساريس. 2004 :6)، وهنا يحاول أوساريس إضفاء شرعية على كل الممارسات الوحشية التي مارسها في حق الذين حاولوا الدفاع عن حقهم في وطن حر، ويضيف أوساريس: "إذا وجدت نفسي في وضع يشبه الوضع السابق (أي معركة الجزائر) فإنني سألجأ إلى نفس الطرق التي استعملتها من قبل – وإن كان ذلك يزعجني- لأنني أعتقد أن ذلك هو السبيل الوحيد لحل المشكلة" (أوساريس. 2004 :7)

تناقض واضح: ممارسة سلوكات تزعج في الأصل وكأنه لا يملك لكيانه وجود، تلك هي المفارقة الكبرى، وبالتالي الجلاد ما هو إلا أداة في يد سلطة عليا، يطغى على عمله وممارساته العدوانية التي يعتبرها عملا وطنيا وواجبا نبيلا، وبهذا يقضي الجلاد على الشعور بالذنب والإحساس بالندم.

هناك حالة أخرى تدعم سلوك الفرد وتعزز عمله، هي مدى قبول ظاهرة التعذيب في الوسط الذي يعيشه أو يعمل به، ومدى ممارسة أفراد الوسط أو زملاء العمل لظاهرة التعذيب "فالإنسان بصورة عامة يجنح إلى الاندماج والتأقلم مع الوسط لكي يشعر بأنه جزء من المجموعة (سيد عبد الله، م، 1997: 92)، والتأييد الذي شهده جلادو فرنسا من المدنيين

والحكومة زاد من ثقة الجلاد ومن دعم فكرة أن التعذيب وسيلة لا غنى عنها من أجل الإبقاء على الجزائر الفرنسية.

ومن أجل صنع الجلاد أنشأت مدرسة خاصة لتدريب الجنود على كيفية التعذيب من طرف الجنرال" سلان ولاشروي"(SALAN et LACHEROY) سنة 1958 وتسمى مدرسة "جون دارك"(JEAN D'ARC) التي وردت في رسالة وزير الجيوش "قييوما" حيث صرح:

20 Décembre 1959 M. GUILLAUMAT. Alors ministre des armées : « Il est scandaleux de faire croire, par la présentation tendancieuse d'un enseignement donné dans une école militaire, dissoute de puis plusieurs mois, que l'emploi de le la torture et un système encouragé par l'autorité militaire… » (KASSEL, P, 2003 :55) جسدت فرنسا مسألة صنع الجلاد بنجاح، والدليل هو عدد ضحايا التعذيب والوسائل التي كان يبدع الجندي في اختراعها. والصورة الموالية تؤكد على أن التعذيب كان يدرس أيضا في مدارس عسكرية فرنسية للقضاء على الثورة.

الصورة رقم (01): تبين وجود مدارس لتعليم التعذيب في الجزائر المستعمرة

المصدر: GILLES, FERRAGU, 2001

رابعا : الضحية : الآثار الجسدية والنفسية

يستهدف التعذيب تدمير الطاقات الحية الجسدية والنفسية للضحية فهو: "ليس مجرد اعتداء على الحقوق بل هو عملية تدمير للكيان...، تاركا الإنسان في حالة عجز جسدي فعلي وتصدع نفسي، يخرجانه من مجال الحياة الفاعلة والمشاركة والمنتجة. فالتعذيب "ينتج كيانات إنسانية في حالة خراب، إن لم يكن جسديا واضحا فهو خراب نفسي ظاهر للعيان""(حجازي، م. 2006: 128). وعليه يمكن تقسيم الآثار المترتبة على التعذيب إلى آثار جسدية وأخرى نفسية.

1- الآثار الجسدية

آثار التعذيب الجسدية تكون في الغالب غير ظاهرة لأسباب دعائية محضة، والتي عادة ما تشفى وتختفي بسرعة، غير أن هناك أعراضا جسدية أخرى تنتج عن التعذيب لا تختفي، أو تظهر بعد سنوات طويلة، من بينها:

- الإعاقة نتيجة تعرض الضحايا إلى ضربات جسدية قوية ومتكررة.
- ضعف في الرؤية، حيث تصاب الأعين بأمراض مزمنة ونقص في حدة البصر. كما يؤدي الضرب في الرأس إلى آلام في الأذن والأنف والحنجرة والتهابات مزمنة، ويشتكي الكثير من الضحايا من نقص في السمع ومن الدوار والطنين، كما يشتكون من آلام في مسالك الأنف. بالإضافة إلى إتلاف الأعصاب نتيجة رضوض في الجمجمة، والإعاقة الحركية الناتجة عن بتر أعضاء الضحية، دون نسيان التشوهات التي قد يعاني منها الكثير ممن تعرض إلى التعذيب.

- الأمراض المزمنة: يصاب ضحايا التعذيب جراء الأوضاع المزرية التي عانوا منها بأمراض مزمنة، أولها أمراض القلب وآلام أخرى ناتجة عن القروح والأوجاع، حيث يصبحون معرضين للإصابة بالتهاب الكبد والأمراض المنقولة جنسيا، وتتأثر الرئتان جراء الخنق بالماء إذ يصاب ضحايا التعذيب بالسعال الدائم ومرض السل، هذا بالإضافة إلى أمراض المفاصل والروماتيزم وإضرابات معدية وبولية وصدرية.

2- الآثار النفسية

يتعلق التأثير النفسي للتعذيب بنظام التفكير والقيم الخاصة بالضحية، وبمدى نموه الشخصي ومختلف العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية، لذلك علينا التأكيد على أن ليس لكل أنواع التعذيب نفس التأثير على الأفراد(NATIONS UNIES, 2005 : 51). ويمكن أن نصنف مجموعة من الآثار النفسية الأكثر انتشارا لدى ضحايا التعذيب إلى مايلي:

- مرض توتر ما بعد الصدمة: هو اضطراب نفسي ينشأ بسبب صدمة مادية أو نفسية أو كليهما، مصادر تلك الصدمة قد تكون التعرض أو مشاهدة أحداث قاسية تهدد الحياة أو السلامة البدنية أو التوافق النفسي، ومثال ذلك مشاهدة المريض لموت أحد ما، أو تهديد حياة المريض أو شخص آخر حوله أو التعرض لأذى بدني بليغ، أو اعتداء جنسي أو تهديد نفسي، بحيث تتجاوز تلك الأحداث قدرة الدفاعات النفسية للمريض على التحمل"(سلطان، أ، 2000: 42).

- استجابات الصدمة: "ذكريات أو صور تعيد الضحية إلى نفس التجربة السابقة، سواء في حالة اليقظة أو النوم (كوابيس)، فكل حالة

مشابهة لتجربة التعذيب تعيده إلى حالة الصدمة. تظهر أعراض هذه الحالة من خلال حذر الضحية الشديد اتجاه كل رموز السلطة والأطباء والمعالج النفساني".(SIRONI,FRANCOISE, 1999 : 80)

- سلوك التباعد وتخدر انفعالي: أهم أعراضه رفض الضحية أي حديث أو فكرة أو عمل أو شخص يذكره بالصدمة.

- الحذر الشديد: أهم أعراضه : تخدر انفعالي عميق، عدم الاهتمام بنفسه والمجتمع، عدم القدرة على تذكر حالة الصدمة، صعوبة في النوم، هيجان وسرعة الغضب، عدم القدرة على التركيز، وجفاف الفم، الدوخة، الاضطرابات الهضمية، التنفس البطيء، والتعرق". (Nations Unies, 2005 : 51)

- الإحباط: "من أعراضه التعب وقلة الطاقة، وكثرة النوم، وتشتت الحواس، وصعوبة التركيز، والأفكار الانتحارية.

- الشعور بعدم الشفاء: يكون في هذه الحالة مقتنع تماما أنه تعرض لضرر لا يمكن علاجه. "(SIRONI, F, 1999 : 77).

- الإنفصال: هو تفكك الوحدة الذاتية بين الوعي وإدراك الذات، وبين الذاكرة والفعل، وتظهر من خلال عدم قدرة الضحية على عزو بعض الأفعال إلى نفسه والشعور أنه شخصين، كأن الضحية يرى نفسه من الخارج.

- أعراض سيكوسوماتية: آلام في الرأس، آلام أخرى، وقد تكون الآلام هي الوحيدة التي يشكو منها الضحية ويعبر عنها. وأكثرها آلام الظهر، العضلات؛ حيث تصبح مزمنة تظهر أكثر عند تعرض الضحية إلى القلق أو الضغط.

- عجز أو خلل جنسي: تنتشر عند ضحايا الاغتصاب أو التعذيب الجنسي"(SIRONI, F, 1999 : 66-67).

- الذهان (Psychose): تظهر من خلال أفكار جنونية، أو تخيلات سمعية بصرية وحسية نتيجة اختلال في الوظائف العقلية، ينتج عنه اضطراب شامل في الشخصية، إذ تصبح الضحية عاجزة عن التكيف الاجتماعي.

- إدمان على السموم والعقاقير والكحول من أجل الهروب من الذكريات.

- إتلاف عصبي- نفسي: ناتجة عن الصدمات الجسدية، كالضرب على الرأس الذي يسبب خللا عصبيا"(NATIONS UNIES, 2005 : 53).

- القلق الحاد والخوف الشديد أو عدم الارتياح وأعراضه الارتعاش، التعرق، الاختناق، وتسارع نبضات القلب، والتقيئ، والدوخة، والهبو، أو الاضطرابات البدنية.

كل هذه المخلفات للتعذيب من اكتئاب، وتوتر، وكوابيس، وشعور شديد بالغضب... تنتج لدى الضحية عدائية اتجاه الآخرين، وتدني في مشاعر الثقة بالنفس واحترام الذات، الخوف من الجنون، والعزلة والحذر، والصمت ونوبات البكاء الخفي، والإحساس بالغربة عن الذات، واضطرابات الذاكرة، والاضطرابات الجنسية والعاطفية، والاضطرابات في العلاقات الاجتماعية والاغتراب. وكأننا "بصدد الكيان المعطوب جسديا ونفسيا، أي بصدد حالة هدر جدري تولد معانات وجودية صامتة أحيانا ومتفجرة أحيانا أخرى، ومفلتة من السيطرة والقدرة على استيعابها

في كل الحالات يحملها معه السجين وكأنه يحمل سجنه أينما حل"(حجازي، م. 2006: 158)، يحس أن حياته فسدت (اكتئاب مرضي) فيدفعه إلى موقع حياتي هامشي.

يؤثر التعذيب بشكل عام على قدرة الشخص على التأقلم والتصرف بشكل طبيعي، فقد أظهرت دراسة أجريت على سجناء سابقين في غزة أن 40% منهم يجدون صعوبة في إعادة التأقلم مع الحياة العائلية و45 % تقريباً من هؤلاء السجناء يجدون صعوبة في الاندماج الاجتماعي بشكل عام يمكن القول بأن غالبية ضحايا التعذيب يعانون من أمراض نفسية وعادة ما تكون الآثار طويلة المدى، خاصة إذا تُركت دون علاج كما يمكن لهذه الأعراض أن تظهر على مراحل مع مرور الزمن (سلطان، أ.2000: 40- 41)، لهذا كله كان لا بد من رعاية طبية نفسية وتأهيل اجتماعي ومهني لرد اعتبار لهؤلاء الذين ضحوا بكل ما يملكون من أجل الجزائر وإيمانهم المطلق بحرية الجزائر.

خاتمة:

أخيرا يمكننا القول أن التعذيب كارثة إنسانية، فكل ما هو جزائري يتضمن في طياته ذكريات عنيفة وعميقة لاستعمار تاريخي وحرب تحرير وطنية شرسة، فهذه هي "رسالة فرنسا الثقافية التمدينية" والحضارية التي بررت بها حركتها الاستعمارية، والتي تفتخر بها في إطار أفكارها الهمجية اللا متناهية من قتل وضرب وخنق وكل ما أوهمت لها من أفكار سادية. لا بد من التأكيد أيضا أن التعذيب ليس مجرد إلحاق الأذى بجسم الضحية بل يستهدف النيل منه نفسيا ومعنويا، فللتعذيب آثار

ومخلفات طويلة الأمد. لأجل هذا كان لابد من معاقبة كل من يتعدى على حقوق وحريات غيره، لا بد من معاقبة مجرمي الحرب.

المراجع باللغة العربية

- الجنرال أوساريس. (2004). شهادتي حول التعذيب، ترجمة مصطفى فرحات، الجزائر، دار المعرفة.
- جان بول سارتر. (1958). عارنا...في الجزائر، ترجمة عايدة سهيل إدريس، ط2، بيروت، دار الآداب.
- سلطان أمينة. (2000). تقرير حول ممارسة التعذيب في التحقيق، رام الله، الهيئة الفلسطينية المستقلة لحقوق المواطن.
- سيد عبد الله معتز. (1997). التعصب، ط2، القاهرة، دار غريب.
- سيمون دوبوفراج. (1957). جزيل حليمي: جميلة بوباشة، ترجمة محمد النقاش، بيروت، دار العلم للملايين.
- قليل عمار. (1991). ملحمة الجزائر الجديدة، ج3، الجزائر، دار البعث.
- عمراني عبد المجيد (بدون سنة). جون بول سارتر والثورة الجزائرية، الجزائر، مكتبة مديولي.
- حجازي مصطفى. (2006). الإنسان المهدور (دراسة تحليلية نفسية اجتماعية)، ط2، المغرب، المركز الثقافي العربي.
- نجادي بوعلام. (2000). الجلادون 1830- 1962، منشورات ANEP.

- هنري اليغ. (1958). الجلادون أو الاستجواب، ترجمة عايدة وسهيل إدريس، ط1، بيروت، دار الآداب.

المجلات والجرائد

- لونيسي ابرهيم. (2002). "نساء جزائريات تحت التعذيب الجميلات الثلاث نموذجا"، حولية المؤرخ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، ع 02، ص.ص397-419.

- بختاوي خديجة. (سبتمبر 2009). "أساليب الاستنطاق خلال الثورة الجزائرية"، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ع 01، ص.ص173-188.

- كافي علي. (1958/05/01). "أعمال توحش رهيبة في المدن الجزائرية"، جريدة المجاهد.

- تصريح المجاهد بوعبيدة خالد، أمين المجاهدين لبلدية البرج.

المراجع باللغة الفرنسية

- BOUSSELHAM, HAMID. (2001). Quand la France torture en Algérie, édition ANEP.
- KASSEL, PATRICK. (2003). Guerre d'Algérie 1956, 1960, 1961, Paris, L'Harmattan.
- Kera Kermane. H. (1960). La pacification libre de six années de guerres en Algérie, La cite éditeurs Lausanne.
- LACASSAGE, ALEANDRE. (2003). Vacher l'éventreur et les crimes Sadiques, édition ELIBRON CLASSICS.

- NATIONS UNIES.(2005). HAUT COMMISSARIAT AUX DROIT DE L'HOMME, protocole d'Istanbul pour enquêter efficacement sur la torture, United Nations Publications.
- PROULX, JEAN. (2005). les meurtriers sexuels, édition PUM.
- SIRONI FRANCOISE.(1999). Bourreaux et victimes, psychologie de la torture, ODILE JACOB.
- Vialatoux. J. (1957). Répression de la torture (essai de philosophie morale et politique), Parie, Ed Ouvriers.